# المثقفون العرب والأزمة العراقية

## ردود قلقة على واقع مأزوم

. ياسين الحاج صالح* .

لم تعد الأزمة مشْكلةً تواجه المثقفَ العربيَّ؛ لقد صارت شرطَه، بل هويَّتَه. وكلما أمعن هذا الشرطُ في العسر والكتامة تنوَّعتْ ردودُ الفعل عليه وتعارضتْ خططُ الناس في فهمه والتفاعل معه. ولعلّ هذا، أصلاً، هو المعنى الأنسب للأزمة: فلا تكون مصاعبُ الواقع أزمةً إلا إذا تعثَّرت ردودُ أفعالنا في الإحاطة بها.

تتجاوز «الأزمةُ العراقيةُ» الراهنة العراقَ ونظامَ حكمه، وتتجاوز أيضًا النظامَ العربيَّ و«الفكرةَ العربيةَ» أو العروبةَ، لتُطلَّ على معنى العالم المعاصر والأسس التي ينبغي أن تَحْكمه. وإذا لم يعد هناك «حلّ عربيّ» لهذه الأزمة، فليس ذلك لأنّ بوش والإدارةَ الأمريكية ونخبتَها من المحافظين الجدد تَرفض هذا الحلّ، ولا لأنّ العرب عاجزون عن تقديم حلّ كهذا كما أثبتتْ آخرُ «قِممهم»، بل لأنّ الأزمة التي تتكثّف فيها تناقضاتُ عالمنا المعاصر تحتاج إلى حلّ يَفْتح لهذا العالم بأجمعه - لا للضحايا المباشرين من أهل العراق وغير المباشرين من العرب فحسب - آفاقًا لنظام عالميّ أكثرَ عدالةً واستقرارًا. ودور المثقفين في هذا الإطار ليس دعوةَ العالم إلينا (فهو عندنا سلفًا) ولا ذهابَنا إليه (فنحن فيه إلى درجة الغرق)، بقدْرِ ما هو اختيارُ التشابك معه وإضاءتُه.

ليس هناك «موقفٌ صحيحٌ» من الأزمة الحالية، إذا كنّا نعني بذلك موقفًا يجتمع له الصوابُ الأخلاقيُّ والنجوعُ السياسيُّ والسلامةُ التحليليةُ. وهذا لا ينفصل عن خصائص الأزمة ذاتها، من أيِّ طرفيْها نظَرْنا: فالدكتاتورية العالمية المتطرّفة للسلطة الأمريكية الراهنة تقوِّض شروطَ الفهم العقلانيّ والعملِ المثمر. ومِثْلها قَوَّضَ نظامُ صدّام حسين قدرةَ شعبه على الاعتدال والتمييز. وبدرجةٍ أقلّ قليلاً فحسب فعلت الأنظمةُ العربيةُ الأخرى الأمرَ نفسَه. ويَفتقر العالمُ كلُّه اليوم افتقارًا مؤلمًا إلى قوى دولية مؤثِّرة وغيرِ انتهازية تستطيع حَشْدَ الاعتدال والعقلانية حولها، وبناءَ أرضية لإجماعٍ عالميٍّ من أجل السلام والديمقراطية والاستقرار.

وهذا ينطبق أيضًا على مواقف المثقفين العرب. وهؤلاء، بالطبع، أكثرُ عددًا وتنوعًا من أن يمْكن قولُ كلام مفيدٍ عنهم: ولكننا سنحاول عبر ثلاثة أمثلة نَقْدَ مواقف بعض المثقفين العرب، لا بعرضها على «موقفٍ صحيح» لا نَعْرفه، بل بمحاولة كشف قلقها وتأزّمها وتناقضاتها الذاتية. سنَعْرض، في المقام الأول، مواقفَ مثقفين عراقيين، وهم معنيّون أكثرَ من غيرهم بالاضطراب المتفجّر الحاليّ. ثم نناقش البيانَ الذي وقّعه بعضُ المثقفين العرب (ومنهم مشاهير) ويَدْعون فيه الرئيسَ العراقيَّ إلى التنحّي عن السلطة تجنيبًا لبلاده حربًا مدمِّرة. ونُلْقي أخيرًا نظرةً على نقاش محدود، لكنّه تمثيليّ جداً، جرى بين بعض المثقفين السوريين حول القضية مثارِ النقاش.

### سياسة المرارة

«كل ما نحلم به/ ألا تعصف بنا هذه الأعاصير... / أعاصير لا تكفّ عن اقتلاع الأشجار من جذورها»(١)

يختلف محورُ تركيز أكثر المثقفين العراقيين في الأزمة الراهنة اختلافًا بيِّنًا عن محور تركيز معظم نظرائهم العرب. فهم يركّزون في المقام الأول على «الدكتاتور الذي ينام قلقًا وذهنُه مشغول.»(٢) والأساسُ في كتاباتهم وأحاديثهم الشفهية هو دكتاتوريةُ نظام

* - كاتب ومترجم سوريّ.

١ - سركون بولس: «كيف نَحْمل العبءَ وننهض بعد الطوفان،» ملحق **النهار**، ٢٠٠٣/٢/١٦.

٢ - قطعةٌ بهذا العنوان لشاكر الأنباري، ملحق **النهار**، ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٣.

الحُكْم في بلدهم ووحشيّتُه وفئويّتُه.[1] وهم يأخذون على «معظم» المثقفين العرب «تغاضيَهم عن طبيعة النظام الشموليّ العراقيّ.»[2]

يجب أن يكون موقفُ العراقيين هذا مفهومًا. فمعظمُ مَنْ نقرأ لهم هاربون من العراق ومشرَّدون في المنافي الأوروبية والعربية. هذه هويتهم: «فأن تكون عراقيّاً اليوم هو تكثيفٌ إضافيٌّ لهوية حائرةٍ ومذعورةٍ في الآن نفسه.»[3] لكنْ يبدو لنا أنّ المرارة، أكثرَ من الحيرة والذعر، هي التي تَصنع الهويةَ العراقيةَ وتوجّه مواقفَ المثقفين العراقيين. وهذا أمرٌ مفهوم بدوره: فقد وُلد الاجتماعُ السياسيُّ العراقيُّ (والعربيُّ) من المرارة والظلم أكثرَ بكثيرٍ ممّا استطاع أن يُصرِّف أو يمتصّ.

وإذا كانت رغبةُ كثيرٍ من المثقفين العراقيين في الخلاص من الرئيس صدّام حسين أمرًا لا يحتاج إلى تأكيد، فإنّهم يريدون أيضًا تجنُّبَ الحرب. ويتكشّف ما في هذا الموقف من عسْر، بصورة مؤلمةٍ وكاريكاتيريةٍ معًا، في مطالبة كمال سبتي (الشاعرِ اللاجئِ في هولندا) الأمريكيين بألاّ يُنْهوا «الأزمةَ الحاليةَ بدون تغيير الدكتاتورية، وإنهاءِ الحصار، وعودةِ ملايين العراقيين إلى بلادهم.» لكنّه يضيف أنّ الشاعرَ العراقيَّ العامَّ «لا يريد للولايات المتحدة أو لأية قوة دولية أخرى أن تشنّ حربًا على بلاده.» لا يريد سبتي أن تكون الولاياتُ المتحدةُ بابا نويل فحسب، بل يحدِّد أيضًا ما يريده من هدايا منها: فهم (أي الأمريكيون) «يستطيعون فعلَ أشياء كثيرة» كما يقول! لكنّ وراء هذه السذاجة السياسية ألمًا مصنوعًا من العزلة والغربة: «لا أدري كيف ستكون حياتي اللاحقةُ في العراق، لكنني لا أستطيع الاستمرارَ في هذا المنفى.» ويأمل سبتي بمعجزةٍ ما: «أن يستقيل الرئيسُ مثلاً، أن يَذْهب هو وعائلته إلى منتجعٍ ما، ولا أقول منفًى، حاملاً معه المليارات والذكريات السعيدةَ عن مَقاتل أعدائه خلال أكثر من ثلاثين عامًا.»[4]

ومثلَه يَأْمل فالح عبد الجبّار بـ «استقالةِ حاكم، لا استقالةِ وطن،» وبإصلاحٍ يدرأ الحربَ.[5] ويَرفض محمد مظلوم الحربَ، لكنّ رفضه يبدو جماليّاً أكثرَ ممّا هو سياسيّ أو إنسانيّ: «الحرب؟ إنّها ثمن فادحٌ، وفاحشٌ أيضًا، لرسمِ طريقِ عودةِ الشعراء إلى ديارهم.»

قد تكون ردودُ فعل بعض المثقفين العراقيين معقّدة، بل عدائيةً تُشارفُ حدودَ الپارانويا: «وأَحسب أنّ العالم كلَّه سَكَتَ عن هذه الجريمة الفظيعة التي مورستْ في حقّ الشعب العراقيّ، حين لم يعلن إصرارَه فعلاً على طَلَبِ رأينا في ما يجري.» لكنّ الكاتبة الشاكية من «العالم كلِّه» لا تَلْبث أن تَحْتفل فعلاً بالپارانويا بلغةٍ هولوكوستية (مرشَّحةٍ للانتشار بعد الاحتلال الأمريكيّ): «فالجريمة التي

١ ـ يقول منفيٌّ عراقيٌّ في السويد ناقدًا مفاضلاتٍ نافدةَ الصبر تجري في أوساط عراقية: «مَنْ يحتلّنا لفترةٍ أقصر، صدّام أَم الأمريكان؟ مَنْ يقتل منّا أقلّ، صدّام أَم الأمريكان؟ مَنْ يعطينا حريةَ صحافةٍ أكبرَ، صدّام أَم الأمريكان؟ وقبل أيام ظهر أحدُهم يقول: مَنْ يَضْربنا أقلّ بالكيماويات، صدّام أَم الأمريكان؟» سلام عبود، «وطن يبحث عن منفى،» ملحق **النهار**، ٢٠٠٣/٢/٢٣.

٢ ـ أديب الجادر، «النخبة العراقية ومواقف المثقفين العرب،» **النهار** ٢٠٠٣/٣/٤. ويعبِّر مهدي الحافظ (المصدر نفسه) عن موقفٍ مماثلٍ، ويخشى أن يقود عدمُ فهم العرب للمشكلة العراقية إلى مشكلات بين العراقيين وبقية العرب.

٣ ـ محمد مظلوم، «كوابيس كلكامش العائد،» **السفير**، ٢٠٠٣/٢/٢٨.

٤ ـ كمال سبتي، «الغربة الغربية،» **السفير**، العدد نفسه.

٥ ـ فالح عبد الجبار، «أيتها الأوطان ماذا تفعلين بنفسك؟» **السفير**، العدد نفسه.

السياق الراهن، وهو سياق حربيّ تتحكّم به أميركا مع حلفائها، قد يجعل من بيان بعض المثقفين العرب «برغيًا في آلة التحضير لهذه المواجهة الحربية»

تَعـرَّض لهـا الشـعبُ العـراقيُّ تقع مـسـؤوليـتُـهـا على العـالـم أجـمـع، من مـعـارضي الحـرب إلى مـؤيِّديهـا، ومن يسـاريّي العـالـم إلى يمينيّـيـه!» ثم تأتي الجملةُ المدهشة التالية التي تؤسِّس لنوع من الانعزالية العراقية (المرشَّحةِ بدورها للشيوع): «ليس ثمة أحدٌ يتمتّع بالبراءة اللازمة ليحقّ له التدخُّلُ مرةً أخرى في الشـؤون العـراقـيـة.»[1] لكنّ من شـأن احتكار وضع الضحية بهذه الصورة أن يؤسِّس لنوع جـديد من الشـوفـينيـة والعنصرية العراقـيـة، التي لن تَلْبث أن تُنجب صدّامـهـا لحلّ التناقضـات التي يثيرها تأسيسُ الوطنية العراقية الجديدة على أرضيـة «السـابقة في الاضطهـاد.» فهذه الأرضية ستثير بالضرورة تنافسًا بين فئات المجتمع العراقيّ على مَنْ كان الضحيةَ أكثرَ من غيره ومَنْ دَفع الثمنَ الأكبر. ومَنْ يدري؟ فربما غدًا أو بعد غد ستفْسح العروبةُ البعثيةُ الصدّاميةُ الطريقَ لنسخةٍ مقلوبةٍ عنها: عراقوية معادية للعروبة قد تنال كذلك مجدًا وسيعًا في وقتٍ غيرِ بعيد!

باختصار، يشكّل الخلاصُ العاجلُ من نظام صدّام حسين نقطةَ إجماعٍ في أوساط أكثر المثقفين العراقيين خارج العراق ـ من غير حرب إذا أَمْكن، لكنْ بالحرب إن كانْ لا مناص منها. وأما مَنْ يختارون بقاء الوضع الحاليّ إذا كانت الحربُ هي وسيلةَ تغييره الوحيدة، فيشكّلون أقليةً محدودةً وفقًا للإجماع الشفهيّ لمثقفين عراقيين سَمِعْتُهم أو سَمعتُ عنهم. ولا شكّ أنّ اليقين العامّ بقدوم الحرب يقلّل أكثرَ وأكثرَ من وزن هذه الأقلية.

لم يَترك القمعُ الأحمقُ ولا المرارةُ موقعًا وسيطًا يعوّلُ عليه من أجل موقف أكثر توازنًا. حين يَكتب عبد الأمير الركابي مساجلاً مواقفَ مثقفين عراقيين وعربٍ تهـاجم النظامَ العـراقيَّ وحـدَه أو الأمريكيين وحدَهم، ومطالبًا بـ «حيّز ثالث،» فإنّه لا يهتدي إلى ما هو أفضل من توصية ذاتوية: «يجب إيجادُ السبل لإحداث التغيير من دون حرب بقبول زوال الدكتاتورية فورًا، وقيام حكم انتقاليّ وطنيّ، ورفع الصـوت في كلّ مكان من أجل موقفٍ عربيّ وإقليميّ يقدِّم حلاً.»[2] لكنّ المشكلة ليست في الركابي والتيّار الديمقراطيّ العراقيّ، بل هي في انسحاق موقع الوسط والوساطة الديمقراطية والعقلانية ـ الأمر الذي يُفْرغ مواقفَ هذا الموقع من أيّ مضمون موضوعيّ مؤثّر.

### سياسة المثقف الأعزل

منذ حوالى الشـهريْن صَدر بيانٌ عن مجموعة من المثقفين العرب يدعو إلى ضغط الرأي العامّ العربيّ من أجل تنحية صدّام حسين، وتحقيقِ انتقال سلميّ للسلطة في بغداد، وإقامةِ نظام ديمقراطيّ في العراق. وقد استمدّ هذا البيانُ أهميّتَه من التعارض بين شهرة المثقفين الموقِّعين عليه وقيمتِهم الثقافية والإبداعية من جهة،* وفقرِ مضمونِ البيان وتجاهُلِه لشرطِه الحاكم من جهة ثانية ـ وأعني بذلك الشرط الاندفاعةَ الحربيةَ للولايات المتحدة التي لا تُخفي خططَها لاحتلال العراق وتنصيبِ نظامٍ ملائمٍ لها فيه.

يندهش المرءُ من اعتبار البيان استقالةَ صدّام حسين هي «الوسيلةَ الوحيدةَ لتفادي مزيدٍ من العنف»: يندهش لا لأنّ «الوسيلةَ الوحيدةَ» هذه تُضْمر تسليمًا بقَدَريّة الهجوم الأمريكيّ، بل لأنّ عبارة «المزيد من العنف» تضفي غفْليّةً على الحرب الأمريكية، إذ تَعْتبرها مجردَ عنفٍ متماثلٍ مع ذاته يتوزَّع على أطرافه

١ ـ هدى طه، «غريب على الخليج. ترتيب المستقبل،» ملحق **النهار**، ٢٠٠٣/٢/٩.

٢ ـ عبد الأمير الركابي، «المثقفون العرب وقضية العراق: فخّا الاتجاه الواحد؟» **السفير**، ٢٠٠٣/٢/١٤.

* ـ ملاحظة الآداب. من الموقّعين على البيان المذكور كلٌّ من إدوارد سعيد وإلياس خوري وفوّاز طرابلسي وشبلي الملاّط.

بالتساوي، ثم ترتّب هذه الحربَ ترتيبًا منطقيّاً محتومًا على لبث صدام حسين في موقعه وامتناعه عن الاستقالة. ولا يغيِّر من هذا وصفُ البيان المحقُّ لحُكْم صدّام حسين بأنه «كان خلال ثلاثة عقود كابوسًا على العراق والعالم العربيّ.» ولكنّ إسناد المطالبة باستقالة الرئيس العراقيّ إلى كابوسية حُكْمه لم يكن بحاجة إلى انتظار عام ٢٠٠٣ واحتشادِ وسائل القوة والتدميرِ الأمريكية ليستقيم. كما أنّ «تفادي حربٍ تهدِّد أهلَ المنطقة بكارثة» لا يستدعي استقالةَ صدّام حسين، إلاّ إذا اعتبرنا الحربَ محتومةً لا مَهْرب منها ومترتّبةً ترتيبًا حتميّاً وحصريّاً على مكوث صدّام في سلطته كما أشرنا.

على كل حال يبدو أنّ المثقفين الموقّعين على هذا البيان انطلقوا بالفعل من أنّ الحرب آتيةٌ لا ريب فيها، وأنّ استقالة الرئيس العراقيّ و«المقرَّبين منه» قد تُجنِّب العراقَ تجرُّعَ الكأس الأمريكية. لكنْ إذا صحّ أنْ لا مفرَّ من «الحرب،» وهو صحيحٌ وفقًا لكلّ تقدير، فإنّ مِنْ غير الصحيح أنّ استقالة صدّام ستوفِّر على العراق إلّا ما يسمّيه الأمريكيون «الأضرارَ المُصاحِبة،» أي الضحايا المدنيين. فدخولُ الأمريكيين إلى العراق واحتلالُه أمران واقعان في كل حال، و«الكارثة» ستحيق بـ «أهل المنطقة» في كلّ حال لأنها ليست من مترتّبات المعركة العسكرية حصرًا ولا أساسًا بل هي مِنْ خطط الأمريكيين (التي منها إعادةُ رسم الخرائط، وتغييرُ الأنظمة، وفرْضُ سلام إسرائيليّ على الفلسطينيين...). وقد تجاوزت الديناميكيةُ العسكريةُ والسياسيةُ والنفسيةُ للحرب نقطةَ الانعكاس منذ أيلول الماضي على الأقلّ، بحيث إنّ استقالة صدّام حسين لن تُوقفها بل على الأرجح ستسرِّع وصولَها إلى أهدافها المقرَّرة. فما الذي مَنَعَ موقّعي البيان من رؤية ذلك؟ هل تُنْبئ هذه الغفلةُ عن «درجة عالية من استبطان التلفيقات الأمريكية التي تزداد جذريتُها الديمقراطيةُ حيال العرب بقدرِ ما تزداد جذريتُها في إعادة إنتاجِ وتدعيمِ نظام الهيمنة الأمريكية (والإسرائيلية) على الشرق الأوسط» كما عَلَّقَ جوزيف سماحة بشيء من القسوة على البيان وموقّعيه؟

مهما يكن من أمر فإنّ السياق الراهن، وهو سياقٌ حربيٌّ تتحكّم فيه الولاياتُ المتحدة مع حلفائها، سيَقْلب وظيفةَ البيان على مضمونه وضدّ نيّات أصحابه، وقد يَجْعل منه «برغيّاً في آلة التحضير لهذه المواجهة الحربية،»[1] لولا أنّ هذه المواجهة الحربية تجاوزتْ ـ حتى قبل صدور البيان المذكور ـ الحاجةَ إلى براغي.

وبعيدًا عن أن يؤثِّر بيانٌ وَقَّعه بعضُ أهمّ المثقفين العرب في مسار الأحداث أو في مواقف الرأي العامّ، فإنّنا نرى أنّ الأحداث قد جَرَفَتْ هذا البيانَ بسرعة وفكّكتْ مضمونَه. ولا نجد غيرَ نتائج تفكّكه في شرح شبلي الملاّط له، بلغة مألوفة من دونالد رَمْسفيلد وخوسيه ماريا أزنار وطوني بلير.[2] يقول المحامي المعروف: «الكلام عن الإقناع [إقناع الرئيس العراقيّ بالتنحّي] لا معنى له، فصدّام لن يتنحّى إلاّ تحت الضغط.» قد يَخْطر في بالنا أنّ الملاّط يَقْصد ضغطَ الرأي العامّ العربيّ، كما وَرَدَ في البيان. لكنّ الرجل يَصْرف هذه الفكرةَ الطوباويةَ بالحسنى لأنّ «العالَمَ لم يعد يتحرّك هكذا.» غير أنّه قد يتقبّل هذا الضغطَ كقوةٍ مساعدة، فهو يقول: «إذا كان تحريكُ الشارع العربيّ سيساعد على الضغط والتأثير على الشارع العراقيّ فقد يكون ذلك مفيدًا.» ما المرجوّ إذن؟ «أن يأتي اليومُ الذي تتوقّف فيه تلفوناتُ صدّام حسين عن الرنين.» والتناقض محلولٌ مع

١ ـ جوزيف سماحة، «مثقفون في فخّ التغيير،» **السفير**، ٢٠٠٣/٢/٤.

٢ ـ مقابلة مع شبلي الملاّط في جريدة **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٣/١/٥.

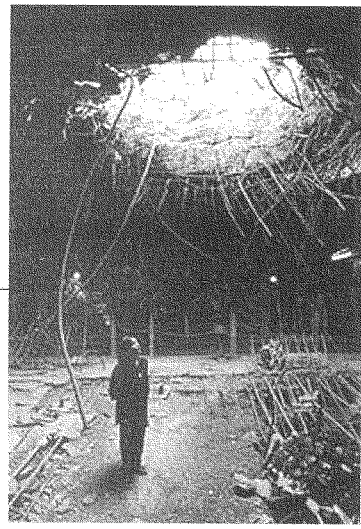

يتساءل أحد الكتّاب: لماذا التركيزُ على فظائع الاستبداد الداخلي، وتجاهُلُ آثار العدوان على الأمّة والوطن؟

البيان... إنْ افترضنا أنّ «الرأي العامّ العربيّ» **هو** الذي يتّصل بصدّام!

غير أنّ الملاّط يمضي في إعادةِ هيكلةِ البيان إلى درجة التقليل من فكرة تفادي الحرب أكثرَ ممّا هي عليه في البيان الأصليّ. وبعد هذا الخبط الأعشى لن نفاجأ حين يُخْبرنا أنْ لا أحدَ يريد الحربَ «سوى صدّام حسين وشارون،» أو حين يصف «تحرُّكنا» [أيْ تحرُّكَ الموقِّعين] بأنه يشجِّع على «الخروج من خيارَيْن لا ثالث لهما: إما الاستسلام أو الصمت.» تُرى ما الفرق بين الأمريْن؟

بل هناك نسخةٌ جديدةٌ أكثرُ تشوُّشًا وأقلُّ إبانةً من إعادة تأويل البيان نفسها، وقد نشرها الملاّط في جريدة **النهار** في ٢٠٠٣/٣/٢. وفيها نجد كلامًا عن القرار ٦٨٨، وعن آليّات الشرعية الدولية «التي اشتركْنا في بلورتها على امتداد العقد الماضي» وعن الأمم المتحدة... وكلُّها موجَّهة ضدّ نظام بغداد، بما يوحي أنّ هذا النظام **هو** الذي يوشِكُ على قصف واشنطن واحتلالِ الولايات المتحدة!

## المثقف والقوميسار

ما ينطبق على بيان هؤلاء المثقفين من افتقار شديد إلى السياسة ينْطبق ربّما بصورةٍ أكبر على مقالةٍ لافتةٍ كتبها جاد الكريم الجباعي بعنوان «تهافُت الدفاع عن العراق.» يرى الجباعي أنّ خطاب «نصرةِ العراق» والدفاع عنه كان في معظمه «دعمًا للنظام العراقيّ لا للشعب العراقيّ» ـ وهذا صحيح إلى حدّ بعيد في الإطار السوريّ. فمنذ العام ١٩٩١ كان «الوجهُ الآخرُ لإدانة العدوان، ولا يزال، تبريرَ الاستبداد وتأييدَه ومناصرتَه.» ويوحِّد الجباعي الاستبدادَ والاستعمارَ تحت مفهومٍ عامٍّ هو العدوان، ويتساءل: «لماذا لا نرى في شارون وبوش وصدّام حسين وأمثالهم وجوهًا مختلفةً لحقيقة واحدة؟» واستباقًا لمن قد يرمي كلامَه بأنّه من قبيل الوعظ الأخلاقيّ، يَطْرح الجباعي نظريةً ترى أنّ الأخلاق هي سياسةُ الضعفاء: «فالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية تتطابق [لدى الفقراء والضعفاء والمقهورين والمضطَهَدين] مع المصالح المشروعة التي يتنكّر لها الأقوياءُ الذين يَهْضمون الحقوقَ ويَضْطهدون أصحابَها.» وبهذه النظرية يتمكن الكاتبُ من حماية افتقار موقفه إلى السياسة.

بعد أن يقرِّر الجباعي أنّ «الاستبداد والاستعمار صِنْوان ووجهان لعملة رديئة واحدة،» يؤكّد «أنّ الاستبداد **أخطرُ** من الاستعمار لأنه يَسْتقدِم الاستعمارَ أو يُنْتج القابليةَ للاستعمار والقابليةَ للاستقواء بالخارج على الداخل.» لكنّه يغادر تعميماته الضاربةَ عند نهاية مقاله ويتحدث بلغةٍ أقرب إلى السياسة: «في ظلّ هذا الاختلال الفاضح في نسبة القوى، تغدو مهمةُ المثقفين العرب والعاملين في الحقل العامّ العملَ في سبيل تلافي العدوان والتملُّص من المواجهة، وذلك بالضغط على الرئيس العراقيّ... لكي يستقيل من منصبه ويسلِّمَ زمامَ الأمور لمؤتمر وطنيّ تتمثّل فيه جميعُ قوى المجتمع العراقيّ... وتُنتخب حكومة موقّتة تهيِّئ لانتخاب جمعية وطنية تقرِّر شكلَ النظام السياسيّ وعلاقاته الداخلية والخارجية.»[1]

يجب قراءةُ مقالة الجباعي في إطار الحقل السياسيّ والإيديولوجيّ السوريّ، لا خارجه. ففي هذا الإطار تكتسب أحكامُ الكاتب شحنةً سجاليةً تَعْترض على إغفال الخطاب القوميّ المهيمن للتسلّط، ومصادرة هذا الخطاب (باسم التصدّي للتهديد الخارجيّ) للداخل ولحريّاته. كلامُ الجباعي لم يكن ممكنًا قبل عقد أو عقديْن من السنين: إنّه ابنُ تاريخنا السياسيّ في ربع القرن الأخير من القرن العشرين، حتى لو صَعَّدت المقالةُ هذا التاريخَ في تعميماتٍ لاتاريخيةٍ في الظاهر.

١ ـ http://jadg.cjb.net

لمقالة الكاتب السوريّ قيمةٌ بذاتها، واكتسبتْ قيمةً أكبرَ حين استثارت ردَّ فعل نمطيّاً ومهمّاً في سياقنا. ففي ردٍّ على مقالة الجباعي، يتأسّف رجاء الناصر[1] لاستخدام الثقافة «كمَعْبرٍ لتأييد العدوان الأمريكيّ على العراق أو للتغطية عليه، وأن يتحوّل بعضُ المثقفين... إلى أدوات لتمرير هذا العدوان من خلال تصوير أنّ الاستعمار... أهونُ الشرّيْن في معادلة الاستعمار والاستبداد.» ويَفْضح الكاتبُ «الفذلكاتِ» التي تُركّز على «فظائع الاستبداد وآثاره المدمِّرة على الأمة والوطن وتتجاهل آثارَ وتأثيراتِ العدوان على الأمة والوطن،» ويصف ذلك بأنه «كلامٌ حقٍّ يراد به باطل.» وإزاء جلاء أهداف هذا العدوان المتمثِّلة في «محاولة القضاء على الوجود القوميّ للأمة العربية، وطمْسِ هويّتها الفكرية والمعرفية، وإعادةِ صياغة كياناتها ودولها لتصبح مجردَ كانتونات ودولِ طوائف،» لا يُنْكر الكاتبُ حقَّ المثقفين في الحديث عن «ضحايا الاستبداد وآثاره المدمِّرة» ولا حقَّ «المناضلين والمواطنين» في مقاومة الاستبداد ـ فهو واجبهم في الحالين. ما يُنْكره هو توظيفُ هذا «الحقّ وهذا الواجب في خدمة العدوان الأمريكيّ والصهيونيّ أو للسكوتِ عنه.» وهذا التوظيف جعلنا ـ والكلامُ للناصر ـ «نشكّ بحسن الاستدلال المعرفيّ الأخلاقيّ لدى تلك القلّة من المثقفين.» ثم ينتقل إلى ضمير المتكلِّم المفْرد ليبرِّر قَصْر شكّه على حُسْن استدلالهم، لا عليهم هم بالذات، فيقول: «لأنّني أُحسن الظنَّ ببعض هؤلاء المثقفين الذين أعرفهم، وأَعرف أو أحسب أنّني أعرف أنّهم غيرُ مرتبطين بالأهداف البعيدة للعدوان وبدوائره...» لكنْ قد يكون الكاتبُ مطالَبًا بإبداء درجةٍ أكبرَ من حسن الفطن، ودرجةٍ أقلّ من حسن الظنّ، بالنظر إلى ما يَلْحظه هو بالذات من أنه «مع اشتدادِ وتسارعِ التحضير لجولةٍ جديدةٍ من العدوان الأمريكيّ على الأمة العربية عبر البوّابة العراقية، ومع تنامي الهجمة الصهيونية على أهلنا في فلسطين... ارتفعتْ وتيرةُ تلك الأصوات 'الثقافية' وارتفعتْ حدتُها وازدادِ عددُها، في ما يبدو وكأنّه سباقٌ بين تلك القلّة لاستقبال العصر الجديد، عصرِ الاستعمار الأمريكيّ الصهيونيّ.»[2]

**مرة أخرى: البارانويا بخير!**

تتوحّد المواقف الثلاثة التي استعرضناها في ابتعادٍ متزايدٍ عن «ثوابت» الوجدان القوميّ العروبيّ التقليديّ: فبقدرِ ما يؤدّي التمسكُ بثوابت هذا الوجدان (الوحدة، والتحرُّر، ورفض التدخل الأجنبيّ...) إلى السخط والتمزّق النفسيّ بعد أن خذلتها الديكتاتوريّاتُ القوميةُ قبل غيرها، سيجد الكثيرون منّا أنفسَهم مدفوعين إلى هجرها لكي يستعيدوا تكاملَهم واستواءَهم النفسيّ. كما نَرْصد أيضًا اشتراكَ المواقف الثلاثة في منح أولوية مطلقة، قد لا تكون سياسيةً، للمَطلب الديمقراطيّ. ونَرْصد أخيرًا اشتراكَها جميعِها في مرارةٍ وقلقٍ طافييْن على سطح القول.

وفي خلفية المواقف الثلاثة التي استعرضنا، ثمة تحوُّلٌ تاريخيٌّ كبير قلّما نال اعترافَ التاريخ الإيديولوجيّ الذي تَعْرضه لنا العقائدُ السائدة. فهي مواقف تدلّ على أنّ هذا التاريخ هو تاريخُ انتهاك عفّتنا القومية، تاريخُ نزعِ وطنية الشعوب وخيانتها لأوطانها. لقد أمسيْنا شعوبًا أسيرةَ ردّ الفعل، شعوبًا مستعدّةً للتخلي عن ذاتها ولسلخ ملامح وجهها كي تَكيد للمستبدّ العربيّ!

**دمشق**

---

١ ـ عرَّف عن نفسه بأنه «رئيس الجمعية الأهلية لمناهضة الصهيونية ونصرة فلسطين،» وهو أيضًا عضو المكتب السياسيّ في حزب الاتحاد الاشتراكيّ العربيّ المعارض.

٢ ـ رجاء الناصر، http://www.thisissyri.net، ٢٠٠٣/١/٨.